



خطبة صلاة الجمعة 29/8/2014 للشيخ الطيب محمد خير الشعال، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكى

(أخطاء شائعة (23) - الاستدانة في غير محلها)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيُّه وخليفه، خيرُ نبيِّ اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صلِّ على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِكْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 286].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135]

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً، نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ، زِيدَ فِيهَا، حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبُهُ، وَهُوَ الرَّأُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: 14]» [الترمذي].

هذه هي الخطبة الثالثة والعشرون في سلسلة: (أخطاء شائعة)

هدفُ السلسلة السعي لتصحيح ما استطعنا من هذه الأخطاء، فإن الله تعالى لا يهلك قرية أهلها متناصحون مصلحون ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْيَ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 117].

تتناول السلسلة خطأً في العلاقات الأسرية مرةً، وشعارها: (أسرتي سكتي ومسؤوليتي)، وخطأً في معاملاتنا المالية مرةً أخرى، وشعارها: (أسواقنا مرآة ديننا).

وخطبة اليوم من النوع الأول، وعنوانها: (الاستدانة في غير محلها)

والمراد من العنوان الاستدانة في غير زمانها ومكانها الصحيحين، قال تعالى في هدي الحج: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: 33] لَا يُتَحَرَّ الهدي حَتَّى يَبْلُغَ مَحَلَّهُ؛ أي: الْمَوْضِعُ أَوْ الْوَقْتُ اللَّذَيْنِ يَحِلُّ فِيهِمَا نَحْرُهُ. قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: (الْحِلُّ) بِكَسْرِ الْحَاءِ يَقَعُ عَلَى الْمَوْضِعِ وَالزَّمَانِ. عُنْوَانُ الْخُطْبَةِ: (الاستدانة في غير محلها) والمراد الاستدانة في غير زمانها ومكانها المناسبين.

أيها الإخوة:

تعلمون بأن الإسلام رَغِبَ أَتْبَاعَهُ بعدم الاستقراض، ونَفَرَهُم من الاستدانة، خصوصاً لمن لا يحسن السداد والأداء، أو لمن اقترض في مجال الاستهلاك، كأن يقترض مَنْ يَغْلِبُ على ظَنِّهِ عدم القدرة على السداد؛ لخيانة أو سوء إدارة.

أو يقترض المرء لتبديل سيارته، أو لشراء هاتفٍ محمولٍ حديث غالي الثمن!! أو تقترض امرأة من أختها لشراء ثوب لحفلة عرس...

ويظهر هذا التنفير من الدين واضحاً في الأدلة التي تشدّد على الدين، وتضيق مسالكه؛ كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدِّينَ» [رواه مسلم].

وعند الترمذي قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَكْفِرُ كُلَّ خَطِيئَةٍ»، فقال جبريل: (إِلَّا الدِّينَ)، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِلَّا الدِّينَ».

وعن محمد بن جحش رضي الله عنه قال: كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ! مَاذَا نَزَلَ مِنَ التَّشْدِيدِ؟» فَسَكَنَّا وَفَرَقْنَا، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدِ سَأَلْتُهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذَا التَّشْدِيدُ الَّذِي نَزَلَ؟ فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ رَجُلًا قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ أُحْيِيَ، ثُمَّ قُتِلَ، ثُمَّ أُحْيِيَ، ثُمَّ قُتِلَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ، مَا دَخَلَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ دَيْنُهُ» [رواه النسائي].

وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهَا، فَقَالَ: «هَلْ عَلَيْهِ مِنْ دَيْنٍ؟»، قَالُوا: لَا، فَصَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ أُخْرَى، فَقَالَ: «هَلْ عَلَيْهِ مِنْ دَيْنٍ؟»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ»، قَالَ أَبُو قَتَادَةَ: عَلَيَّ دَيْنُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، «فَصَلَّى عَلَيْهِ» [رواه البخاري].

وصحيح أن الأصل في الاستقراض الإباحة؛ لأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أقرضَ واقترضَ، ولكنَّ العلماء اتفقوا على أَنَّ مَنْ عَلِمَ عَجْزَهُ عَنِ السَّدَادِ، وَلَمْ يَكُنْ مُضْطَرّاً حَرُمَ عَلَيْهِ الْاِقْتِرَاضُ، وَإِذَا شَكَّ بِقُدْرَتِهِ عَلَى السَّدَادِ كَرِهَ الدِّينَ لَهُ.

أَمَّا إِذَا كَانَ الرَّجُلُ مُضْطَرًّا، وَيَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ السَّدَادَ فَيَجِبُ عَلَيْهِ الْإِسْتِقْرَاضُ.

جاء في كتاب المغني لابن أبي قدامة: (قَالَ ابْنُ أَبِي مُوسَى: لَا أَحِبُّ أَنْ يَتَحَمَّلَ بِأَمَانَتِهِ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ. يَغْنِي مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى وَفَائِهِ. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْتَقْرِضَ، فَلْيُعْلِمْ مَنْ يَسْأَلُهُ الْقَرْضَ بِحَالِهِ، وَلَا يَغُرَّهُ مِنْ نَفْسِهِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ الْيَسِيرُ الَّذِي لَا يَتَعَذَّرُ رَدُّ مِثْلِهِ).

ثمَّ إِنَّ الدِّينَ -أيها الإخوة- ضَيْفٌ ثَقِيلٌ يَعْكِزُ صَفْوَ حَيَاةِ الْمُسْتَقِيمِينَ، وَيَتْرَكُ الْمَرْءَ مَغْمُومًا يَفْكِرُ طَوِيلًا فِي طَرِيقَةِ سَدَادِهِ.

والأصل فيه أن يكون في الضروريات أو الحاجيات، وليس من الصواب أن يكون لأجل الكماليات، ومنهجُ النبي صلى الله عليه وسلم: «لَا أَشْتَرِي مَا لَيْسَ عِنْدِي ثَمَنُهُ» [الحاكم، ووافقه الذهبي].

والواجب أن تتوازن شهواتنا مع إمكاناتنا المادية، ولئن زادت رغبتك في الدين فعليك بالتسويق والتأجيل إلى الأسبوع القادم، ثمَّ إلى الذي بعده، وستكتشف أنَّ قطارَ الحياة يسيرُ رغمَ أنَّك لم تَسْتَدِنْ.

هذه هي المبادئ العامة للاقتراض في الشريعة وعند ذوي الألباب، ولكننا نُفاجأُ في سوقنا التجاري بالديون التي تُثْقِلُ كاهلَ الكثيرين، وبالاقتراضِ بِحَاجَةٍ وبغيرِ حاجةٍ ديونٌ على الفاقدين والواحدِين، حتى صارَ فينا مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ مَنْ لَا يَقْتَرِضُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُتَاجَرَ، وَأَنَّ مَنْ لَا يَقْرِضُ لَا يَسْتَطِيعُ الْبَقَاءَ فِي السُّوقِ، وَأَنَّهُ لَا يَوْجَدُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا إِلَّا وَعَلَيْهِ دَيْنٌ.

ترى الرجلَ يملكُ مليوناً ويتاجرُ بثلاثةِ ملايين، وقد كان كبارُ تجارنا يملكون الثلاثةَ ويتاجرون بالواحد، يُبْقُونَ الْاِثْنَيْنِ لِحِفْظِ مَاءِ الْوَجْهِ إِذَا خَسِرَتِ الصَّفَقَةُ أَنْ يَرِاقَ عَلَى الْأَرْضِ، فَكَانَتْ كَلِمَتُهُمْ كَلِمَةً وَسَمْعَتُهُمْ سَمْعَةً.

ترى الشابَ يريْدُ فَتَحَ مَحَلِّهِ الْجَدِيدِ، يَضَعُ فِيهِ مِنَ الدِّيكُورَاتِ ثَلَاثَةَ أَضْعَافِ مَا يَمْلِكُ؛ لِيُبْهَرَ الدَّاخِلِينَ بِالْمَنْظَرِ؛ فَيَدْخُلُ نَفْسَهُ فِي نَفَقِ الدِّينِ الْمَظْلَمِ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ بِالْعَمَلِ، حَتَّى إِذَا بَدَأَ الْعَمَلَ وَلَمْ يَأْتِهِ الزَّبَائِنُ مُسْرِعِينَ كَعَادَةِ أَيِّ مَحَلٍّ جَدِيدٍ أَغْلَقَ مَحَلَّهُ بَعْدَ سَنَةٍ، وَتَرَكَ الْبَلَدَ وَسَافَرَ تَارِكًا دِيُونَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ. وَقَدْ كَانَتْ أَكْبَرُ مِتَاجِرِنَا فِيهَا الْبَسَاطَةُ فِي الْبِنَاءِ وَالطِّينِ وَالْفَخَامَةُ فِي الْعَقْلِ وَالدِّينِ.

ويَقْتَرِضُ ثَالِثٌ مِنْ أَخِيهِ مَبْلَغًا كَبِيرًا؛ لِأَنَّ صَدِيقَهُ أَنْبَأَهُ عَنْ صَفَقَةٍ تَدْرُ عَلَيْهِ أَرْبَاحًا خَيَالِيَّةً خِلَالِ أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ؛ فَيَشْتَرِي الْيَوْمَ عَلَى أَمَلٍ أَنْ يَبِيعَ غَدًا لِيَرْبِحَ، فَيَرْبِحَ، ثُمَّ يَعَاوِذُ الشَّرَاءَ وَالْبَيْعَ فَيَرْبِحَ، فَيُبْهَرُهُ تَأَلُّؤُ النَّقْدِينَ، فَيَشْتَرِي ثَالِثًا وَرَابِعًا وَيَبِيعُ، لَكِنَّهُ يُفَاجَأُ بِخَسَارَةٍ كَبِيرَةٍ فِي الصَّفَقَةِ الْخَامِسَةِ جَاءَتْ عَلَى الْأَرْبَاحِ وَرَأْسِ الْمَالِ، وَرَأْسُ مَالِهِ دَيْنٌ لَا يَدْرِي كَيْفَ سِيرُهُ لِأَخِيهِ. لَقَدْ أَغْرَاهُ الرِّبْحُ السَّرِيعُ؛ فَنَسِيَ احْتِمَالَ

الخسارة فلم يحسب لها حساباً، وعقلاء التجار يعلمون أنَّ التجارة ربحٌ وخسارةٌ فيحسبون لكلِّ حالٍ حساباً.

كان شاباً مجتهداً في عمله، في الثلاثين من عمره، جَمَعَ مبلغاً متواضعاً من المال، هو حصيلة عمله واجتهاده، وله سمعةٌ في السُّوق جيدةٌ بانضباطه وأدبه، له صديقٌ معه نحو مبلغه، خطر لهما أن يجمعا ما معهما ويسافرا إلى الصين لجلب بضائع يبيعونها فيربحا ربحاً كبيراً، وبعد أن سافرا ووجدا البضاعة رأيا أنَّ الأكثر ربحاً والأحسن مالاً أن يملآ حاوية البضائع، وملء الحاوية يحتاجان لمضاعفة المبلغ، فاتصل كلٌّ منهما بمن يعرف من أهلٍ وأرحامٍ وأصحاب؛ ليقرضوهما وسيردَّان القرضَ بعد شهرين على الأكثر، شُحِنَتِ البضائع وفرحا فرحاً شديداً، لكنهما فوجئا أنَّهما لم يحسبا حساباً صحيحاً للضرائب الجمركية، احتاجا مرةً ثانيةً إلى قرضٍ جديد، وبمشقةٍ كبيرةٍ وبذلِ ماء الوجه اقترضا المبلغ، ونزلت بضاعتها إلى السُّوق، لكن الذي ظهر لهما أنَّهما لم يُحسِّنا الاختيار، وما جاؤوا به من بضاعة لم تكن منافسةً، فباعوا قسماً منها بربح قليل، وباعوا قسماً برأس المال، وقسماً ثالثاً بخسارةٍ، ورابعاً بالأمانة، وتعطلَّ عندهم قسمٌ كبيرٌ، وعَلِقَتْ في رقبتهما حقوقٌ وديونٌ للعباد لم يعرفا كيف يتخلصان منها.

كانت لهما سمعةٌ جيدةٌ في السوق، والآن تغيَّرت، ولو تاجرا منذ البداية برأس مالهما فقط لأراحا واستراحا، وحفظا أموال النَّاس وماء الوجه وسمعة العمل.

أيها الإخوة:

الاستدانة في غير محلِّها خطأً، والصواب أن يجيب المرء على ستة أسئلةٍ قبل الدخول في دائرة الدين:

-هل الشيء الذي سأقترض لأجله ضروريٌّ؟

-هل وقت الاقتراض الآن مناسبٌ؟

-ما القرارات التي ستُتخذ بشأن نفقاتي بعد الاقتراض؟

-كيف سأسدِّد الدين؟

- ما الخطة البديلة للسداد إن لم تنجح الطريقة الأولى؟

-كم سيستغرق سداد الدَّين؟ وهل أنا مستعدٌّ لذلك؟

فإن لم تُجب على هذه الستة إجاباتٍ واضحةً، فلا تقترض، ودع أموال النَّاس منك في سلامةٍ، وأرخ نفسك من أن يقرع بابك الدائنون.

نسأل الله تعالى أن يعيننا على تصحيح أقوالنا وأفعالنا حتى يُعجِّلَ لنا بالفرج.

والحمد لله رب العالمين